الفصل الأول

الثقافة.. ما هي ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
الثقافة .. ما هي .. ؟؟

مدخل :

من المسلم به أن جميع البشر متساوون ، حيث خلقهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أب وأم معروفين لنا جميعًا، هما آدم وحواء ، وبنص القرآن الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقالكم ، إن الله عليم خبير ﴾.

فالخلق إذا من معين واحد، ولكن البشر انتشروا علي سطح الكرة الأرضية، بسهولها ووديانها وجبالها ، بغاباتها وصحاريها، بأنهارها وبحارها، وبذلك أصبحوا « شعوبًا وقبائل » تفصل بينها فواصل طبيعية في البداية، أي من صنع الطبيعة التي أوجدها الخالق جل وعلا، ثم من بعد ذلك فصلت بينها فواصل سياسية من صنع البشر، حين ابتدعوا الفواصل السياسية عبر تاريخهم الطويل.

وخلف هذه الحدود السياسية، وقبلها الجغرافية، عاش كل مجتمع مع نفسه، يتفاعل أفراده وجماعاته مع بعضهم ، يتعاونون في السراء والضراء ، يصارعون عوامل الطبيعة، إن كانت غير مواتية، ويحاولون إخضاعها لقضاء حاجاتهم ومصالحهم ، كما أنهم يستفيدون من تلك العوامل في حالة كونها مواتية وميسرة لخيرهم ولخير ذرياتهم من بعدهم.

وهم كذلك تعاملوا مع بعضهم البعض في علاقات ود وتراحم وتزاوج وتجارة وتبادل، كما أنهم ـ في بعض الأحيان ـ اضطروا للتعامل مع بعضهم في علاقات سلبية ، فيها حرب وتنافر وتطاحن، وهم في كل ذلك ، في حرب.. وفي سلم ، في تعاون .. وفي تطاحن، مروا في خبرات اكتسبوها على مر الأيام والسنين، فتشكلت لكل جماعة منهم خصائص ميزتهم عن غيرهم، ميزتهم بمعنى

بمعنى حددت شخصيتهم، وليس بمعنى فضلتهم على غيرهم ، حيث إن الثقافات تتمايز ولا تتفاضل، على الأقل من وجهات نظر أصحابها.

هذه الخصائص التي تميز شعبًا عن شعب هي التي نسميها « الثقافة »، ونحن هنا نقصدها بمعناها العام الشامل والواسع الذي يشتمل على كل شيئ في حياة الجماعة، ونقصد بذلك الجوانب المادية والمعنوية في حياة ذلك الشعب أو تلك الجماعة، فما اكتسبه ذلك الشعب أو تلك الجماعة من قيم، وما توصلا إليه من عادات، وما استقرا عليه من معايير للسلوك والتصرف، وما ارتضاه الأفراد فيهما لأنفسهم من تقاليد.. إلخ ، كل ذلك يشكل « الجانب المعنوي » للثقافة، كما أن كل ما استطاع أن يتوصل إليه من اختراعات ومبتكرات، ابتداء من التوصل إلى « إشعال النار » عن طريق ضرب حجرين ببعضهما، والتوصل «للعجلة» والجري بها ، وانتهاءً « بمركبات الفضاء» ، و« الأقمار الصناعية» وتوظيفها لصالحه ، سواء في الحروب أو في الاتصالات ، ومروراً بما بين هذين الطرفين من ابتكارات في الصناعة وتوظيفها في الزراعة والتجارة والطب والتعليم والاتصالات وغيرها.. كل أولئك يمثلون الجانب المادي من تلك الثقافة التي عنها نتحدث.

وبالتالي فنحن أمام تاريخ الجنس البشري كله، في صراعه، أي صراع ذلك الجنس، مع الطبيعة من حوله، أو في صراع جماعاته مع بعضها، وكوّن حولها وعنها أفكاراً ومعتقدات تعلمها الكبار ، وعلموها لمن خلفهم من أبنائهم وأبناء أبنائهم، بحيث صارت هذه كلها جزءاً من تكوين هذه الشعوب والجماعات، وأصبحت علامات مميزة لهم ، ودلالات واضحة عليهم، وكأنها مثل السمات الجنسية أو البشرية المميزة لهم، كما يقول علماء الأجناس أو علماء الجغرافيا البشرية.

ورغم ذلك التفسير أو الفهم لمعنى الثقافة ، وكيفية تكونها ، الا أنه ينبغي الاعتراف بأن مصطلح « الثقافة Culture» كان ـ ولا يزال ـ من أكثر المصطلحات التي اختلف عليها العلماء اختلافًا بيِّنا، وحينما .. وأينما التقوا كانت هناك تعريفات للثقافة ، ربما ، بعددهم .. دون أدنى مبالغة..!!

أصل مصطلح الثقافة ومعناه :

يقول « عويس » : إن العرب استعملوا كلمة « ثقافة » بمعنى التقويم والتهذيب ، من ثقفت الرمح إذا هذبته وقومته، واستعملوها أيضا بمعنى الحذق والفطنة ، ووردت عندهم بمعنى الوجود، وبمعنى التمكن والغلبة ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ .[1]

أما إذا تركنا العرب ، وانتقلنا إلى شعوب أوروبا ، فنجد أن كلمة «ثقافة» كانت .. ولازالت.. ذات صلة وثيقة بالزراعة ، فالأولى Culture، والثانية Agriculture ومعناها زراعة الأرض بعد تهذيبها وإعداداها، كما استعملت في اللاتينية بمعنى قريب من المعنى العربي ، فقيل إنها «Culture Anui » ، بمعنى تهذيب الروح ، وبمعنى التهذيب الرباني« Dei Culture»، وقد استعمل اللفظ بمعنى العبادة « Dei Culture » ، أي عبادة الله على اعتبار أن عبادة الله صقل للنفس وتهذيب لها.

ومنذ العهد الروماني ارتبط معنى الثقافة بالعلوم الإنسانية ، أي العلوم التي تنفصل فيها كل أمة من الأمم الأخرى ، كعلوم الدين واللغة والآداب التي يدخل فيها الفلسفة والفنون، أي العلوم غير العلمية وغير الطبيعية.

ثم في عصر النهضة الأوروبية أصبح اللفظ يطلق على الآداب والفنون، كما يقول « حسين مؤنس » في كتابه « الحضارة » ، وكما نقل عنه «عويس»، والذي يميل إلى قصر مصطلح الثقافة على العلوم الإنسانية ، باعتبارها العلوم الأكثر تأثيراً في الرقي الإنساني الحضاري ، من الجانب الروحي ، وباعتبارها ـ كذلك ـ العلوم التي تنفصل فيها أمة عن أمة، وتشكل معالم الشخصية الذاتية للأمة ، ولا تتسع فيها المساحة ، بحيث تكون متشابهة ، أو واحدة بين كل

---

(١) عبدالحليم عويس : « ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة » ، النادي الأدبي بالرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ١٥.

الأمم، كما هو الشأن في العلوم التطبيقية.[٢]

وقريب من هذا المعنى ، الذي قلناه في بداية الحديث عن الثقافة ، من أنها نتاج خبرة تاريخية طويلة للمجتمعات، يقول « زكي اسماعيل » : إن العالمين الأنثروبولوجيين الأمريكيين « الفريد كروبير A. Kroeber » ، و« كلايد كلكهوهن C. Kluckhohn » قد عرضا لما يزيد على مائة وستين تعريفا للثقافة، وبعد أن استعرضا هذا الحشد الهائل من التعريفات لعديد من الأنثروبولوجيين أشارا إلى أنهما يستطيعان ـ بدون أي تحيز لأي من هذه التعريفات ـ أن ينتهيا إلى أن الثقافة ذات مضمون تاريخي Historical، أي من حيث كونها تراكمًا للعديد من الأنماط والمركبات الثقافية التي تراكمت عبر تاريخ ثقافي طويل، وبالتالي فهي تشتمل على الأنماط والأفكار والقيم ، ولها صفة الاختيار والانتقاء، وهي في الوقت نفسه مكتسبة .. أي تتعلم، كما أنها تجديد للسلوك الإنساني Abstract ، وإن لم تكن هي السلوك نفسه، إلا أنها نتيجة لهذا السلوك» .[٣]

ويؤكد « عبود » على الأصل الذي يربط بين الثقافة والزراعة ، في اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ولكنه يقول : إنها استخدمت للتعبير عن التربية لغير الإنسان، فقط للزرع والغل (؟؟) ثم إنها اتسعت بعد ذلك لتشمل « تربية الإنسان أيضًا ، إلى جانب شمولها غير الإنسان ، من زرع وحيوان ، فصارت تعني أخلاق الناس وعاداتهم ، وأي شيئ يحتاج إلى رعاية خاصة.. ثم يبدو أن الكلمة زادت اتساعا بتوجهها إلى أخلاق الناس وعاداتهم ، فصارت تعني ـ فيما تعني ـ تثقيف العقل وتهذيبه.

ثم يبدو أن الكلمة ـ أخيراً ـ بدأت تنفصل عن أصلها : « الزراعة »، لتتصل بهذا الفرع الأخير ، فصارت « ثقف » تعني صار حاذقا فطنًا ، ثقف العلم والصناعة : حذقهما ، وصارت الثقافة تعني : « العلوم والفنون التي

---

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٥-١٧.

(٣) زكي محمد اسماعيل : «الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي » ، عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ص ١٢٢-١٢٣.

يطلب الحذق فيها . [٤]

ويصل الكاتب أخيراً إلى المعني الشامل للثقافة ، وهو المعنى الاصطلاحي لها ، والذي اتفق عليه التربويون والأنثروبولوجيون ، والذي يستخدم الآن في العلوم الاجتماعية وهو « طريقة الحياة الكلية للمجتمع، وقد تتضمن أسلوب تناول الطعام، أو ارتداء الملابس، أو استخدام اللغة ، أو تبادل الحب أو الزواج، أو دفن الموتى ، أو لعب كرة القدم. وقد تشمل أيضًا قراءة الأدب، أو سماع الموسيقى ، أو مشاهدة أعمال الرسامين والمثالين، أو الأنواع الأخرى من النشاط»، وذلك كما يقول « عبود » ، نقلاً عن « أوتاوي » .[٥]

والثقافة ، على النقيض من العلم ، لا يمكن أن تفهم على أنها تعني مستوى عال للامتياز العقلي والفني، في شخص أو مجموعة ، إذ هي ملك للجميع، فلا يوجد إنسان مثقف، وآخر غير مثقف ، على النحو الذي نستخدمه في حياتنا العادية خطأ، إذ أن لكل إنسان ثقافته، صغيراً كان هذا الإنسان أو كبيراً ، غنيًا أو فقيراً ، متعلمًا أو جاهلاً ، رجلاً أو امرأة، ولكل مجتمع من المجتمعات أيضا ثقافته، مهما كانت الظروف المحيطة بهذا المجتمع.

وعلى ذلك فالثقافة بالنسبة للفرد مرادف « للشخصية » ، والثقافة بالنسبة للمجتمع مرادف (للشخصية القومية) التي يتميز بها هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات ، إنها ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات، والقيم وأساليب التفكير والعمل والسلوك بأنماطه ، أو - باختصار - هي جميع طرائق الحياة التي طورها الناس في المجتمع، وكذلك المنتجات المادية » . [٦]

أما « الرميحي» فيحدثنا عن الحيرة التي تنتاب الكتاب وهم يتعاملون مع تعريفات للثقافة وصلت إلى أكثر من مائة وخمسين تعريفًا «لقد

(٤) عبدالغني عبود : « الحضارة الإسلامية المعاصرة » ، دار الفكر العربي، القاهرة ، ١٩٨١م، ص ص ١٨-١٩.

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٠.

(٦) المرجع السابق ، ص ٢١ .

تعددت المفاهيم واتسعت لمعنى الثقافة حتى أصبحت تعنى معنى آخر هو المجتمع بكل ما فيه وبكل ما يعنيه . وهناك اليوم ما يزيد على مائة وخمسين تعريفًا للثقافة، بعضها جامع شامل، وبعضها محدد » .[٧]

ويقول الكاتب السابق : « إن المعنى الواسع للثقافة هو كل ما ينتجه مجتمع ما من إنتاج مادي ومعنوي، أي أن كل منتجات الإنسان في حياته اليومية العملية والترفيهية تمثل الثقافة لذلك المجتمع، أو لتلك المجموعة الإنسانية ، والمعنى الآخر هو المعنى الضيق للثقافة ، ويعني ما ينتجه الإنسان في مجتمعه من منتج فكري ، وهذا هو المعنى الشائع للثقافة .

ويستدرك « الرميحي » ليبين العلاقة بين الثقافة بمعناها الواسع الشامل، وبين الثقافة بمعناها الضيق إذ يمكن أن يتحول منتج فكري ما إلى واقع مادي، كأن تتكون لدى فرد أو بعض أفراد مجموعة من الأفكار السياسية أو القانونية أو العلمية ، وتتحول هذه الأفكار في وقت لاحق إلى شيئ مادي، فهناك إذا حتى في المفهوم الضيق للثقافة إمكانية التبادل بين المعنيين، أو العلاقة الجدلية بين المفهوميين » .[٨]

تعريف اليونيسكو :

وطالما أننا لا زلنا في مجال بيان أصل مصطلح « الثقافة » فلعله يكون من المناسب أن نعرض لجهد دولي تم في هذا المجال، فلقد اجتمع ممثلو «اليونيسكو» في المكسيك، خلال معظم أيام شهر يوليو والأيام الأولى من شهر أغسطس عام ١٩٨٢م، في محاولة لتحديد معنى ذلك المصطلح، فيما عرف باسم «إعلان مكسيكو» وبعد مناقشات طويلة مكثفة ومركزة ، معمقة وموسعة، خرج علينا المؤتمرون بالتعريف التالي :

« إن الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جميع

---

(٧) محمد الرميحي : « واقع الثقافة ومستقبلها في أقطار الخليج العربي » ، المستقبل العربي، العدد ٤٩، مارس ١٩٨٣م، ص ٤٤.

(٨) المرجع السابق ، ص ص ٤٤-٤٥.

السمات الروحية.. والمادية.. والفكرية.. والعاطفية ، التي تميز مجتمعًا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة ، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات».[٩]

ويفسر الإعلان ـ بعد ذلك ـ الثقافة تفسيراً إجرائيًا فيقول : «إن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائنًا يتميز بالإنسانية المتمثلة في العقلانية ، والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي، وعن طريقها (أي طريق الثقافة) نهتدي إلى القيم ، ونمارس الاختيار، والثقافة هي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرف على ذاته كمشروع غير مكتمل ، وإعادة النظر في إنجازاته، والبحث ـ دون توان ـ عن مدلولات جديدة ، وإبداعات وأعمال يتفوق فيها على نفسه. [١٠]

ويخلص « الرميحي » في النهاية إلى : « إن الثقافة تعني جوهر المجتمع ، تعني كل ما ينتجه المجتمع من إنتاج مادي ومعنوي، كما تعني تأثر ذلك المجتمع أو تلك المجموعة الإنسانية بالنتاج المادي والمعنوي لغيرها ، وتأثيرها فيه ، ومدى النقل الكامل والاستيعاب والتمثيل، فالثقافة السائدة في مجتمع ما، أو جماعة ما، تعني السمات الأساسية.. الروحية والمادية والفكرية التي تميزهما ، هذه السمات الأساسية هي التي تميز ثقافة عن ثقافة أخرى ، وهي التي تعطي المنتج المادي والفكري خصوصيته وتفرده ». [١١]

وقد بنى الكاتب السابق رأيه على الإعلان العالمي « إعلان مكسيكو» للثقافة بمعناها الواسع الذي يضم بين عناصره : الاهتمام بالعدالة العالمية، والسلم العالمي، وحقوق الشعوب والأفراد في الديموقراطية والتنمية ، بل لقد أفرد « إعلان مكسيكو » صفحات كثيرة للحديث عن الثقافة والتنمية ،

---

(٩) المرجع السابق ، ص ٤٥ . (الوثائق الرئيسية لإعلان مكسيكو بشأن الثقافة ، والذي كان نتيجة لمؤتمر اليونيسكو للثقافة ، مكسيكو ٦ يوليو - ٦ أغسطس ١٩٨٢م).

(١٠) المرجع السابق.

(١١) المرجع السابق.

والثقافة والديموقراطية ، والعلاقة الحميمة بين الثقافة والتربية وعلوم الاتصال.

ومن ناحية أخرى يضيف « العمر » أبعاداً أخرى للمعنى الشامل للثقافة ، فهي عنده « نتاج أنماط التربية ونظم التعليم ، ومبتكرات العلم، وجملة العادات والتقاليد، وكذا الأديان والمذاهب والعقائد، وذلك في إطار انطباعات وجدانية وقيم خلقية » .[١٢]

والثقافة عند « شاكر مصطفى » : « تنتظم السمات الذاتية للأمة ، من مادية وروحية وفكرية وفنية ، كما تشمل قيمها الأخلاقية والمجتمعية، ومواقفها من الحياة، وطرائق تفكيرها، وإبداعها الجمالي، ونتاجها المعرفي، وسبلها في السلوك، وهي تضم أخيراً تطلعاتها ووسائلها في الوصول إلى حياة أكثر إنسانية ، وأنبل قيمًا، وأوسع شمولاً ، وأعمق معرفة وفكراً.

والثقافة ـ بهذا المعنى ـ ليست جهداً إنسانيًا مجانيًا ، ولكنها ذات وظيفة إنسانية ـ قومية معًا، فهي بجانب الدين واللغة قوام وحدة الأمة، لأنها تنسج تكوينها الداخلي ، وتجمع أفرادها على المصير التضامني الواحد، وهي وسيلة تأكيد الذات والتمايز عن الآخرين ، بوصفها مستودع القيم.[١٣]

كما أنها سبيل الآمان والاطمئنان لأفراد الأمة الواحدة ، بوصفها أكثر النشاطات اتصالاً بكرامة الإنسان، وتعبيراً عنه وعن حريته، بالإضافة إلى أنها حصن الدفاع، لأن وظيفتها أساسية في مواجهة التحديات القومية من تجزئة وتخلف وتبعية وصهيونية، ولأنها مناط الهوية القومية المقاتلة، وآخر ما يمكن انتزاعه من النفوس، هذا إلى أنها .. أخيراً.. وسيلة اللقاء مع الآخرين على المثل العليا الإنسانية المشتركة.[١٤]

---

(١٢) عبدالله العمر : « التواصل الثقافي بين دول مجلس التعاون : الواقع والمطلوب »، مجلة التعاون ، العدد الثالث، شوال ١٤٠٦هـ - يوليو ١٩٨٦م، ص ٤٢.

(١٣) عبدالمنعم الصاوي: « عن الثقافة » ، دار القلم ، (بدون مكان نشر)، ١٩٦٦م، ص ٣٦.

(١٤) شاكر مصطفى : « التخطيط الثقافي في دول مجلس التعاون » ، مجلة التعاون، العدد الرابع ، محرم ١٤٠٧هـ/اكتوبر ١٩٨٦م، ص ص ٩-١٠.

ويتحرز « الرميحي » في بُعد مهم حين يتحدث عن التنوع والتفرد في الثقافة ، حتى داخل المجتمع الواحد يقول : « ولا شك أن كل جماعة لا يمكن أن تتطابق مع غيرها في سماتها الأساسية الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، ولا شك أن هناك تنوعًا وتفرداً فيها لدى جماعة دون جماعة أخرى في المجتمع نفسه أو الدولة السياسية، ولكن المراد هنا هو السمات الأساسية والجوهرية المشتركة في مجتمع ما.

وبنفس التحليل فإننا نجد سمات أساسية وجوهرية ومشتركة لدى جماعة من الناس قد تفرق بينهم (حدود) سياسية . فالسمات الأساسية الجوهرية والمشتركة الروحية والفكرية والمادية ليست بالضرورة تابعة أو مقيدة ومحصورة في إطار سياسي معين، أو ما يسمى بالدولة الحديثة ، فقد نجد في الدولة الواحدة مجموعات ذات سمات ثقافية متعددة، وقد يشترك بعض هذه المجموعات مع مجموعات أخرى - خارج الإطار السياسي - بسمات ثقافية مشتركة ».[١٥]

وبنفس المنطق السابق الذي يقول : إن الثقافة غير مقيدة بالحدود السياسية ، بمعنى أنها تختلف بين جماعات متعددة داخل إطار سياسي واحد ، وقد تتطابق بين جماعات أخرى عبر الحدود السياسية يصل « الرميحي» إلى مفهوم مؤداه أن محاولات توحيد « النموذج الثقافي » لاعتبارات سياسية هو في الواقع « قتل وتدمير للثقافة »، وليس تطويراً لها ، ثم إن هناك اليوم «ثقافة وطنية»، و«ثقافة إقليمية»(داخل الوطن الواحد) ، كما توجد ثقافة «عبر وطنية» مشتركة خارج الإطار السياسي. وتوجد - أيضًا - «ثقافة ذات قنوات عالمية، فعالم اليوم شديد التعقيد، وسريع الاتصال، فهي لا شك تتخطى الكثير من الجدران التي كانت إلى وقت قريب تحيط بالثقافات الوطنية ».[١٦]

أما « سرحان » فيقول : « إن الثقافة لا تعني تلك الصفات أو الميول

---

(١٥) محمد الرميحي : « الخليج ليس نفطًا : دراسة في إشكالية التنمية والوحدة » ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، الكويت ، ١٩٨٣م، ص ١٩١.

(١٦) المرجع السابق.

التي تميز الفرد المتعلم عن غيره من أفراد المجتمع، كما أنها لا تعني السلوك الحميد والذوق الرفيع لشخص يحسن التصرف مع الآخرين، أو ذلك النتاج التعليمي أو التخصصي في ميدان من ميادين العلم والمعرفة الذي بلغ فيه فرد ما أو مجتمع ما شأنًا عظيمًا ، فقد اعتاد الناس أن يصفوا فرداً بثقافته العالية، أو مجتمعًا بثقافته الأدبية أو الفنية، كالثقافة الإغريقية أو المصرية القديمة مثلا ».[١٧]

أما الثقافة عنده فهي : « كلٌ عضوي يتمثل في طريقة الحياة في المجتمع، وذلك الكل الذي تتشابك عناصره وتتداخل ، ويؤثر بعضها في بعض، ويتغير أو يتطور بتغير الزمان والمكان. وبعد أن يمر بعددٍ من تعريفات الثقافة يصل الكاتب إلى مفهوم شامل للثقافة يقول إنه « طريقة الحياة في المجتمع، بجوانبها المادية كالآلات والإنشاءات والأزياء وغيرها. والمعنوية كاللغة والأدب والفن والدين وغيرها، وهي من صنع الإنسان في سعيه إلى التكيف مع البيئة الطبيعية الاجتماعية، لإشباع حاجاته العضوية والعقلية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية، كما أنها تتمثل في قيمة الحياة واتجاهاتها ومعاييرها الحاكمة، وفي طرق التفكير وأنماط الفكر، وفي المعتقدات والتوقعات والعلاقات التي تنظم علاقات الناس وحياتهم، وفي أنماط السلوك ومصطلحاته بين الناس في المجتمع ونظمه وأجهزته ومؤسساته.

والثقافة تتناقلها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي، لا عن طريق الوراثة البيولوجية، وهي ما يتعلمه الخلف من السلف عن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها، وكذلك عن طريق الإشارات والرموز.[١٨]

ثم إن ثقافة الإنسان من صنعه هو ، فهو الذي يسيطر على البيئة الطبيعية ويبحث في وسائل استغلالها والتكيف معها لتحقيق مطالبه، وذلك

---

(١٧) منير المرسي سرحان : « في اجتماعيات التربية » ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (الطبعة الثالثة) ، ١٩٨١م، ص ١٢٩.

(١٨) المرجع السابق، ص ص ١٣١-١٣٢.

يعني أن الثقافة أمر متصل بالإنسان، وليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني ، وليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني، وانطلاقًا من علاقاته الإنسانية بالطبيعة وبالمحيط الذي يعيش فيه، وتنبثق موضوعات النشاط الاقتصادي وتدور حول محور المنفعة والاستفادة، كما تتحدد وسائل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والتوزيع، وينبثق من هذا النشاط الاقتصادي كثير من العلاقات التي تنظمه ، والقيم والمعايير التي تحكمه ، والأجهزة والمؤسسات التي تحققه، ويتم ذلك كله في إطار الثقافة.[١٩]

ويفرق « سرحان » بين المجتمع البشري وغيره من المجتمعات الحيوانية الأخرى على أساس الثقافة، فهي التي تميز المجتمع الإنساني بلغته وذكائه وإنتاجه عن المجتمعات الحيوانية » فلبعض الحيوانات كالنحل والنمل والطيور وغيرها من الكائنات مجتمعات ، ولكن ليس لها ثقافة ذلك أنها تعيش حياتها على أساس سلوكها الفطري وتكوينها الجسماني المعد من قبل، ومن ثم فهي لا تحتاج عند ولادتها أن تتعلم من الكبار إلا قليلاً، لأنها تكون قد اكتملت عندها إمكانات تكيفها مع البيئة التي تعيش فيها ، لذلك تقصر طفولة الحيوان عن الإنسان. [٢٠]

أما « قمبر » وزملاؤه فيقولون : « إنه تستعمل كلمة ثقافة بمعان مختلفة، فهي تؤخذ عادة على أنها تعني مستوى عال من الامتياز العقلي والفني لشخص أو مجموعة، وقد تفهم - أيضًا - بمعنى المعارف والمعلومات الواسعة التي لدى المتعلمين تعليمًا عاليًا، فيعرف البعض الشخص المثقف بانه ذلك الشخص الذي يحظى بنصيب وافر من العلم والمعرفة، فهو يقرأ الكتب والصحف والمجلات، ويعرف سير العلماء، ويتوافر لديه قسط معقول من المعرفة

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) المرجع السابق، ص ١٣٢.

والفنون والعلوم والآداب » .[٢١]

ثم يستدرك المؤلفون السابقون قائلين : إن تعريف الثقافة بهذا الشكل ، أي قصرها على النواحي الفكرية (المعرفية) يعتبر تعريفًا ناقصًا لأنه « يهمل المكونات الأخرى للخبرة ، مثل المهارات والعادات والاهتمامات والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير، وما يبنى على كل ذلك من أنماط السلوك والتجديدات والاختراعات والتطبيقات التي توصل إليها الإنسان خلال العصور السابقة، وتجمعت آثارها لديه في صورة ذخيرة كبرى تتوارثها الأجيال ، وتنتفع بها ، وتضيف إليها ».[٢٢]

ويبين لنا الكتّاب السابقون اتجاهين في فهم الثقافة ينقلونهما عن «فاروق اسماعيل » ، ومن خلال هذه الاتجاهين يمكن عرض معالجة الباحثين لمفهوم الثقافة وحصر الخلافات بينهما ، كما يقولون :

أ ـ الاتجاه الأول (الواقعي) :

ومن أقطابه « تايلور » و « بواس » و«ديكسون»، وهم ينظرون إلى الثقافة كصفة تميز السلوك الإنساني ، وهم عادة ما يعرفون المفهوم بلغة « اكتساب » العادات والتقاليد..إلخ، فهم يرون أن الثقافة لها وجود خاص متمايز مستقل عن الأفراد الحاملين لها. والثقافة عندهم هي « ما يفعله المجتمع وما يفكر فيه » .. وهي العناصر الموروثة خلال حياة الناس، سواء كانت هذه الموروثات مادية أو روحية ، فالثقافة هنا « فوق عضوية » ، أي توجد وتعمل وفق منطقها الخاص، وهي مستقلة عن الإنسان.

ب ـ الاتجاه الثاني (المثالي) :

وهو الاتجاه المثالي ، ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه « أوسجود »

(٢١) محمود قمبر وآخران : « دراسات في أصول التربية » ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٣٢.

(٢٢) المرجع السابق ، ص ص ٣٢-٣٣.

و«رالف لنتون» و « كروبر»، وهؤلاء ينظرون إلى الثقافة على اعتبار أنها مجموعة من الأفكار في عقول الأفراد ، أو أنها « مفهومات مألوفة ومدركة » . إن الثقافة هنا ليست شيئًا متمايز الوجود بحيث يمكن لمسه. إنما الثقافة عند أصحاب هذا الاتجاه مجرد مدركات في عقول الذين يشاركون فيها. إنها بالأحرى جزء من الكائن العضوي يتخذ شكل أفكار أو آراء أو معلومات يستخدمها في تحديد السلوك الذي يستهدفه». وهذا الكلام ـ كما سبق القول ـ نقله « قمبر وزملاؤه » عن «فاروق اسماعيل». [٢٣]

ثم نقرأ عن المفهوم الشامل للثقافة ، حيث يقول المؤلفون السابقون «إن النظرة الشاملة إزاء الثقافة توجب علينا أن نأخذ في الاعتبار كلا من الاتجاهين المثالي والواقعي ، فالثقافة عضوية ، بمعنى أنها إدراك الناس أنفسهم للأشياء من حولهم، وخبرتهم في التعامل معها، فالثقافة في ذهن حاملها مدرك عقلي معرفي، بمثابة طريقة إجرائية Recipe تمكننا من إنتاج السلوك أو الأشياء المادية ، وهذه الطريقة الإجرائية تشتمل على توجيهات وإرشادات تحدد الأداء والسلوك، وتجعل للأشياء معنى.

لكن الثقافة في الوقت نفسه فوق عضوية ، فهي حقيقة مستقلة عن حامليها، وليست مجرد مفهوم في عقلهم، إنها كينونة لها وجودها المتمايز، وتعمل وفقًا لقوانينها ، ولا يوجد أي تناقض في الجمع بين الاتجاهين، فلأن الثقافة مفهوم.. أو مركب عقلي ، في عقل حامله، فهي ذات وجود مستقل، فالمفهوم المعرفي هنا إنما يشير إلى طريقة واقعية تنتظم الظواهر والأشياء القائمة بالفعل، ولأن هناك أنسقة معرفية توجه السلوك ونتائج السلوك، فهناك أنسقة عمل (سلوك ونتائج السلوك) يؤثر بدوره في صنع المفاهيم والمدركات، إن النظرة الشاملة للثقافة تقتضي إقرار العلاقة المتبادلة بين الفكر والواقع ، بين الإنسان وثقافته». [٢٤]

---

(٢٣) فاروق مصطفى اسماعيل : «الأنثروبولوجيا الثقافية» الدوحة ، قطر، ١٩٨٦م، ص ٩٣.

(٢٤) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ٣٦.

ونصل في نهاية رحلتنا في البحث في تحديد أصل ومعنى الثقافة، نصل إلى الجهد الكبير الذي بذلته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حين أقدمت على وضع الخطة الشاملة للثقافة العربية » ، التي قدمت فيها بحوث كثيرة ، نوقشت في اجتماعات موسعة، وخرجت في عدد من المجلدات الضخمة، بعد أن طبعت في الكويت عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

تعريف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم :

يقول أصحاب هذه الخطة الشاملة عن الثقافة ما يلي :

« إن البحث في الثقافة ليس بالأمر السهل، فهي نشاط إنساني بالغ التعقيد والعمق والتشعب . والمصطلح الذي يعبر عنها قد يبدو التعريف به في ميسور كل امرئ.. من كل مستوى ، لكن هذا التعريف ظل نسبيًا قاصراً عن الإحاطة، محتملاً للضيق والسعة، عرضة إلى اللبس أيضًا . ولعل كثرة تداول الكلمة وتعدد ميادينها وسّع مدلولها ، وزاد إبهامها ، وحملها ألوانًا من الأبعاد والمعاني والحدود ».[٢٥]

وتتحدث تلك الخطة عن أصل كلمة « ثقافة » فتقول : « إن الثقافة بالمعنى العربي للكلمة لا تعني أكثر من سرعة التعليم والحذق والفطنة، وثبات المعرفة بما يحتاج المرء إليه، لكنها منذ مطلع هذا القرن حملت معنى اصطلاحيًا أريد به أن يترجم المعنى الذي حملته منذ أوائل القرن الثامن عشر كلمة CULTURE اللاتينية، بعد أن لاقت هذه الكلمة المصطلح رواجًا في عصر التنوير الأوروبي ، وخاصة في ألمانيا. على أن شيوعها في الفكر الأوروبي أدى إلى تشعب معانيها ، وإلى إبهام هذه المعاني، فقد أضاعت الثقافة من وضوحها بقدر ما كسبت من الحظوة والشيوع.

والباحثون في محاولاتهم - منذ قرن من الزمان - كي يعطوا الكلمة التعريف الواحد الشامل زادوا في تعقيدها ، وفي اختلاف هذه التعريفات التي

(٢٥) الخطة الشاملة للثقافة العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلد الأول، الكويت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص ٤١.

فاقت المائتين عددا فثمة من يميل إلى دراسة الثقافة في حد ذاتها ، التنقيب عن وظائفها الاجتماعية المطلقة ، مهملا الاستعانة بتاريخها وعلاقاتها مع الأفراد ، وهناك من يرجح كفة التاريخ، ولا يفهم الثقافة إلا من خلال منظورها التاريخي البحت، وبين هذين المفهومين تمتد تفسيرات شتى مغايرة. (٢٦)

وتقول الخطة بأنه : «لعل من أبواب الإبهام في مفهوم الثقافة، اختلاطها بمفهوم الحضارة، ففي الغرب ظهرت الكلمتان في عصر واحد، هو القرن الثامن عشر الميلادي، وتباينت معانيهما من موقع فكري إلى آخر، فالفرق طفيف بينهما في الفكر الفرنسي، ولكنه كان واسعا في الفكر الألماني حتى أصبحت الثقافة تختص بالمعنى الروحي والفكري والفني والعلمي، بينما تدل الحضارة على المعنى المادي أيضًا والتقني (أي بما نستعمل)، وهكذا جرى الاصطلاح في القرن الحالي. وعلى ضوء الواقع الأوروبي باعتبار الثقافة جزءاً من الحضارة، واعتبار الحضارة صيغة أشمل تحتضن جملة من الثقافات ترتبط بعضها ببعض بصلات واتصالات معينة، ومن هذا المنطلق يتسع مفهوم الثقافة وتختلف ممارستها باختلاف المجتمعات ، وتركيبها بين الفئات والطبقات.

وثمة إبهام آخر يأتي من تداخل مفهوم الثقافة مع مفهوم التقدم ، وأمر التفريق هاهنا أهون لأن التقدم مفهوم تقويمي مرتبط بالاتجاهات الفلسفية التي بدأت منذ عصر النهضة الأوروبية، وتجسد في مظاهر الثورات الصناعية، كما أنه دوما مفهوم نسبي يقوم على تقدير مدى الحركة الإنسانية. (٢٧)

وأخيراً يصل الذين فلسفوا خطة الثقافة العربية إلى كلام واضح بخصوص مفاهيم الثقافة والتي يقولون إنهم يستطيعون اختصار تلك المفاهيم العديدة - في النهاية - إلى مفهومين اثنين فقط هما :

أ - الثقافة بالمعنى (الأنثروبولوجي) : الذي يشمل كل فعالية للإنسان تميزه عن أفعال الطبيعة، فكل نشاط ذهني أو مادي يقوم به

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) المرجع السابق.

لرفض التقبل السلبي للطبيعة هو ثقافة، اعتباراً من أبسط أنواع السلوك الإنساني البدائي حتى إنسان العصر الأليكتروني. فالثقافة بهذا الشكل الواسع هي الإنسان بوصفه فاعلاً منفعلاً، ويدخل فيها كل ما أنتج البشر في الحياة من إنتاج مادي أو غير مادي، سواء أكان تراكم خبرات، أو ممارسات فكرية، أو تصورات عن عقائد روحية، أو صنع أداة من الأدوات ، أو تقليد من التقاليد.

فالثقافة ضمن هذا المفهوم الواسع ، إلى جانب كونها سلوكًا بشريًا وفكريًا جماعيًا ونمط عيش مشترك، وإلى جانب كونها قيما روحية، وعقائد وتقنيات ، فهي أيضًا وأساسًا علاقة الإنسان بمحيطة ، وبموطنه الطبيعي، وبإبداعاته المادية والجمالية، وبذاكرته الجماعية ، والهيكل الشامل ، أو البنية العريضة للوعي بهذه العلاقة وبالذات الجماعية.

ب - أما المعنى الثاني فيرتبط بنوع الأساليب ، وأشكال القيم التي يبتكرها الإنسان ليكسب إنسانيته معناها الخاص، وينظم بها حياته الخاصة.. الاجتماعية والفكرية والروحية والجمالية. وفي هذا السياق فالثقافة تشمل مجموعة أنواع النشاط الفكري والفني بمعناها الواسع ، وما يتصل بها من المهارات أو يعين عليها من الوسائل ، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى ، مؤثرة فيها ، ومتأثرة بها ، معينة عليها ، ومستعينة بها.[٢٨]

وبهذا المعنى أيضا فالثقافة تنتظم جميع السمات المميزة للأمة ، من مادية وروحية وفكرية وفنية ووجدانية، وتشمل مجموعة المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها ، وطرائق التفكير والإبداع الجمالي والفني والمعرفي والتقني، وسبل السلوك والتصرف والتعبير ، وطرز الحياة، كما تشمل أخيراً تطلعات الإنسان للمثل العليا، ومحاولاته إعادة النظر في منجزاته، والبحث الدائب عن مدلولات جديدة لحياته وقيمه ومستقبله، وإبداع كل ما يتفوق به على ذاته.

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٤٢.

والثقافة أخيراً ـ ضمن هذا المعنى نفسه ـ تمنح الإنسان القدرة على أن يفكر في نفسه ، وهي التي تجعل منا ـ فعلاً ـ كائنات إنسانية مفكرة.. ملتزمة أخلاقيًا ومعنويًا، قادرة على التقويم، وبالثقافة يميز الإنسان بين القيم، ويمارس الاختيارات ، ويعبر عن صميم ذاته، ويعي ويعرف أنه مشروع غير كامل ، ولكنه في السبيل إلى الكمال.[٢٩]

(٢٩) المرجع السابق.

obeikandl.com